

الشفاعة (٣)

بين السلب والإيجاب

الشيخ محمد هادي معرفتي - قم

كنا نتحدث سابقاً عن الاعتراضات الواردة على الشفاعة وبقي منها :

الاعتراض الثالث :

ان كان عقاب المذنب عدلاً في القانون فرفعه بالشفاعة يصبح ظلماً ، لان الظلم نقيض العدل ، فاذا لم يعدل فقد ظلم . اذن يصبح توسط الانبياء والملائكة في مغفرة ذنوب العاصين استدعاء مخالفاً لقانون العدل في الجزاء .

وان كانت اجابتهم على هذا الالتماس مقبولة لدى العقل ، اي عدلاً في القانون . فيقتضي ان يكون الحكم الاول بالعقاب ظلماً حيث اصبح نقيضه عدلاً . فلا محالة يكون الظلم في احد الجانبين ، اما في الحكم السابق ، او في النقض اللاحق ، لانهما نقيضان ، فيستحيل ان يتصفا معاً بالعدل .

والجواب :

ان العقاب عدل ، ورفعه فضل ، والسبب يرجع الى تبديل الموضوع، وذلك لان العقاب كان جزاء على عصيان ، وجاءت الشفاعة مقترنة مع الاستغفار والانابة ، لتقلب الموضوع من مقصر تائه الى تائب منيب .

فقد تبدل موقف هذا العبد المقترف للذنوب الى موقف المستغفر اللاتذنبعباية ربه الكريم، الذي هداه الى وسيلته الشافعة فيه : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » (١) ، وخير وسيلة هو استغفار النبي الكريم وأهل بيته الأبرار ، والملائكة المقربين لهذا العبد المؤمن المستغفر .
كما ان التوبة والاستغفار يغيران موقف العبد العاصي من مستحق للعقاب الى موفق للمغفرة والثواب ، حسب وعده تعالى .

* * *

والعمدة ان منكري الشفاعة طائفتان : المعتزلة والوهابية .
أما المعتزلة فكان انكارهم للشفاعة منبعاً عن قانون « الاستحقاق في الجزاء » الذي هو أصل من اصول مذهبهم في الاعتقاد قالوا : ان العقاب جاء عن استحقاق في المذنب ، وهذا الاستحقاق لا بد له من منشأ واقعي وهو ارتكاب الذنب ، فما دام السبب والمنشأ باقياً لا يعقل تخلف المسبب والا لانهدم قانون « ابتناء الاحكام على المصالح والمفاسد الواقعية » وهو قانون آخر تسلمته العداية من المعتزلة والامامية جميعاً ، وهو قانون يقتضيه العدل الالهي وحكمته في الامور .
وفي الجواب عن الاعتراض الثالث وكذا سابقه رد على هذه النظرية الاعتزالية حيث المصلحة تغيرت وتبدل الموضوع ، فلم ينثلم القانون في العدل والحكمة الالهية . . .

أما الوهابية : فجاء انكارهم نتيجة خطأهم في تصوير مفهوم الشفاعة ، حيث زعموا أنها تدخل في شؤون الرب تعالى ، وتحميل له في تغيير عزيتمته ، الامر الذي يتنافى والتوحيد الخالص في التصور الوهابي .
ومن ثم كان هذا الجواب مع الجواب الاتي رداً على هذا التصور الخاطيء لان التوسيط انما يكون تدخلاً قبيحاً اذا كان تلقائياً ، وتحميلاً على ارادة المولى جل شأنه ، اما لو كان باشارة منه تعالى وهدايته وفضله رحمة بالعباد وتكريماً لمقام أوليائه المخلصين ، فهذا عين التوحيد والاستسلام والعبودية الخالصة .

الاعتراض الرابع :

ان الشفاعة - بمعناها المعروف - تدخل في شؤون الله تعالى ، وهو قبيح في شريعة العقل . كما ان الاستشفاع بغيره تعالى نوع من الاشرار ومتناف مع التوحيد الخالص حيث يعني الاعتقاد بتأثير من سواه - سبحانه - في مقدرات الخليقة ومصيرهم في الآخرة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، «قل لله الشفاعة جميعاً» (١) «ليس لهم من دونه من ولي ولا شفيع» (٢) .

والجواب :

ان التدخل القبيح ما كان تلقائياً ومن غير سابقة اذن منه تعالى ، اما من اتخذ عند الرحمن عهداً فان شفاعته امتداد لشفاعة المولى تعالى وفرع على شؤونه بارادته وحكمته ، «ما من شفيع الا من بعد اذنه» (٣) ، وبعد فان رحمة الله تعالى واسعة لا نهاية لها مع الابد ، وهو القائل «يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تظنوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً» (٤) وهذه أرجى آية في القرآن - على ما قيل - تطرد اليأس عن التفكير الديني على الاطلاق .

اذن فقد «كتب ربكم على نفسه الرحمة» (٥) ليغفرن ذنوب عباده جميعاً ، ومن ثم مهد لذلك أسبابه الخاصة من توبة واستغفار وشفاعة باذنه ، وبعث عباده اليها بعثاً حثيثاً قضاء لهذا اللطف العميم والرحمة الشاملة ، وقال : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة» (٦) .

فكل ذلك وسيلة الى غفرانه ، وسبيل الى رضوانه ، هو هدايم اليها وبعثهم نحوها بدافع الرحمة الواسعة ، فأين الشرك وأين التدخل القبيح ؟ !

* * *

ان الخطأ الكبير في التصور الوهابي عن التوحيد انهم يعتقدون ان توحيد

(٣) يونس : ٣ .

(٢) الانعام : ٥١ .

(١) الزمر : ٤٤ .

(٦) البائدة : ٣٥ .

(٥) الانعام : ١٢ .

(٤) الزمر : ٥٣ .

الله تعالى وامحاض العبودية والتسليم له ، يتنافى مع تكريم الصالحين من عباد الله وينافي أن يجعل الله تعالى لهم مقاماً كريماً عنده فيستجيب لدعائهم وشفاعتهم لديه في عباده الذين أسرفوا على أنفسهم ثم أقبلوا عليه متضرعين مستغفرين مستشفين .

والصحيح : ان العبودية الخالصة ماكان استسلاماً لمقام الربوبية على الاطلاق وبخوعاً لكل مايمس هذا المقام من امتدادات وفروع . ولم يكن ذنب ابليس سوى استكباره على الله فيما أمره من السجود لادم فزعم انه سجد لغير الله من غير استحقاق . ان الاخذ بحرمة المولى يستدعى احترام المنتمين اليه المقربين لديه على الاطلاق .

وماحب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

ولا سيما اذا كان المولى هو أمر باحترام أوليائه الصالحين وارشد الناس الى مقامهم الكريم عنده وقبول شفاعتهم لديه ، فالاعتراف بذلك امثال للامر الواجب وامتداد للاستسلام العبودي تجاه ارادة الله العليا في عباده المؤمنين . فلوان المكلف تصرف من تلقاء نفسه زاعماً ان الاخذ بحرمة غير الله يتنافى والتوحيد في العبودية فقد خبط خبط عشواء وتدخل في شؤون المولى من عند نفسه تدخلا بغيضاً ، وكان تبويضاً في امثال الامر الصادر من عند الله . ومن ثم أصبح ردفاً لابليس عاتباً مستكبراً على الله :

«أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» . ١ (١) ، فالكتاب الكريم الذي يقول : «قل لله الشفاعة جميعاً» (٢) هو القائل «لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهداً» (٣) وهو القائل : «ما من شفيع الا من بعد اذنه» (٤) . . الى غيرها من الايات والاحاديث -مرت- (٥) وهي تنص على ثبوت الشفاعة للملائكة والانبياء من بعد أن يأذن الله ويرضى ، الامر الذي لا يتنافى واستناد الشفاعة اليه ، تعالى على الاطلاق نظير قوله تعالى : «الله يتوفى الانفس حين موتها» (٦) وقوله «قل يتوفاكم

(٣) مريم : ٨٢

(٢) الزمر : ٤٤

(١) البقرة : ٨٥

(٦) الزمر : ٤٢

(٥) فى العدد الماضى

(٤) يونس : ٣

ملك الموت (١) ، وقوله « حتى اذا جائتهم رسلنا يتوفونهم» (٢) «الذين تتوفاهم الملائكة» (٣) . نظراً لان هؤلاء الملائكة يمثلون أمر الله في توفية الانفس فكانت منتسبة الى الله على الاطلاق . وهكذا شفاعة الشافعين بأذنه تعالى شفاعة الله جل شأنه .

* * *

اما الايات التي تنفي شفاعة الشافعين فانما هي بشأن الكفار ومن لم يتوفر فيه صلاحية نيل الشفاعة فليست تنفي الشفاعة على الاطلاق انما تنفي شمولها للطالب : «فما تنفعهم الشافعين» (٤) «ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع» (٥) « ولا تنفعها شفاعة» (٦) قال ابن عرفة : نفى للشافع لا الشفاعة (٧) .

وهي كما يخافه من ربه فيضيه في

الاعتراض الخامس :

ان وعد الشفاعة تغريب للعامة باقتراف المعاصي وارتكاب الاثام طول الحياة، حيث ان اغترارهم بالوسيلة الشافعة التي تنتظرهم عند مواجهة الحساب في الآخرة، يجربهم على ارتكاب المعاصي .

وهكذا زعمت اليهود : «قالوا لن تمسنا النار الا اياماً معدودات وجرهم في دينهم ما كانوا يفترون» (٨) .

والجواب :

ان الاغترار بالشفاعة انما يكون اذا كان الوعد بها حتمياً بالنسبة الى جميع الاثام وبالنسبة الى جميع العصاة فرداً فرداً، شمولاً واستيعاباً، بحيث يكون كل أحد على يقين من شمول الشفاعة له بصورة خاصة . .

اما اذا كان مجرد وعد بها بصورة اجمالية ، من غير ان تبين نوعية المعاصي التي تنالها الشفاعة ، او نوعية الاشخاص الذين تنالهم الشفاعة ، فان كل أحد يكون

(١) السجدة : ١١	(٢) الاعراف : ٣٧	(٣) النحل : ٣٢
(٤) المدثر : ٤٨	(٥) غافر : ١٨	(٦) البقرة : ١٢٣
(٧) تاج العروس ج ٥ ص ٤٠٠	(٨) آل عمران : ٢٤	

على رجاء شمول الشفاعة له بصورة أمل واحتمال ، ولعلها لم تنله أبداً . فهذا لا يستدعي تجريباً على خوض الاثام مادام العقاب مسجلاً عليه تجاه العصيان .

* * *

وأخيراً فماذا يجيب هؤلاء المنكرون للشفاعة عن مشروع التوبة التي ترحب بوافديها حتى آخر أيام الحياة ما لم يعاين الموت (١) . وكذلك الوعد بها لغير الكفار (٢) : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » (٣) .

وهكذا الوعد بالرحمة والمغفرة وطرد اليأس والقنوط عن الحياة : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً » (٤) « ولا تياسوا من روح الله انه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون » (٥) « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٦) .

أفلا يغتر العباد بقبول التوبة وبالمغفرة الموعود بها فى الآخرة بصورة شاملة « ان الله يغفر الذنوب جميعاً » . ؟ أفلا يكون الجواب هو عدم تحتم ذلك بالنسبة الى جميع افراد العصاة وبالنسبة الى جميع انواع المعاصي ؟ ومن ثم لا يكون العبد على يقين من شمول المغفرة له بالخصوص ، او توفيقه على التوبة والاستغفار ، ولعل

عقبة حالت دون تحقق ذلك ان عاجلاً او آجلاً . **وهى كما يقال مدرسه ليهيئه لهم**

نعم كل ذلك - من الوعد بالشفاعة والمغفرة وقبول التوبة - شرعت لطرد اليأس عن حياة العامة وخلق الامل فى النفوس ، وبذلك يتأرجح العباد بين الخوف والرجاء فلا يأس ولا اغترار .

اما رجاء الشفاعة فمجرد احتمال وتقدير بالنسبة الى هذه المعصية وبالنسبة الى هذا الشخص من غير يقين . ولذلك فالعقل يؤنبه على تغافل جانب اليقين والاخذ بجانب الاحتمال . « فلا يتترك يقين يشك » فى شريعة العقل فهذا المغتر بالشفاعة من اين علم بانها تناله حتماً ؟ ولعل هناك عقبة كئود حالت دون وصول الشفاعة اليه ،

(١) « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الان » .

(٢) « ولا الذين يموتون وهم كفار ، اولئك اعتدنا لهم عذاباً اليماً النساء : ١٨ .

(٣) الشورى : ٢٥ (٤) الزمر : ٥٣ (٥) يوسف : ٨٧ (٦) النساء : ٤٦

او حالة معترضة افقدته صلاحية النيل منها، فرب موبقة تسلب ايمان مقتر فيها فكانت الشقة بينه وبين نيل الشفاعة واسعة وعميقة للغاية ، «ثم كان عاقبة الذين اسأؤوا السوءى ان كذبوا بآيات الله» (١) نعوذ بالله من معصية تجر بصاحبها الى تكذيب آيات الله . ! «ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون» (٢).

كتب الامام الصادق عليه السلام الى اصحابه : «اعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه شيئاً ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا من دون ذلك ، فمن سره ان ينفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب الى الله ان يرضى عنه» (٣).

وقيل له عليه السلام : أن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصى ويقولون : نرجو فقال : كذبوا ليسوا لنا بموالى ، اولئك قوم ترجحت بهم الاماني ، من رجا شيئاً عمل له ومن خاف من شىء هرب منه» (٤) .

وجمع الامام عليه السلام اهل بيته وذوى قرابته لما حضرته الوفاة ، فنظر اليهم ثم قال : «ان شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة» (٥) .

فيا ترى من يقتر بالشفاعة بعد هذه القيود الثقيلة التي لا يتحملها الا مؤمن صالح لازم التقوى طول حياته .

وهناك من الكبائر ما توعد عليها النار بصورة حتمية نظير قوله تعالى : «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها» (٦) وأمثال ذلك مما يدل على ان دائرة الشفاعة ليست بتلك الواسعة لهفتر بها العصاة المتمردون على الاطلاق . !

فائدة الشفاعة :

قد يتساءل البعض : ما هي الغاية من الوعد بالشفاعة ، أو الفائدة المتوخاة من وراء هذا الوعد المغرر بحياة الانسان والموجب لجرأته على ارتكاب المعاصى

(١) الروم : ١٠ (٢) الاعراف : ٩٨ (٣) روضة الكافي ص ١١ بحار الانوار ج ٨ ص ٥٣

(٤) الكافي ج ٢ ص ٦٨ بحار الانوار ج ١٨ ص ٣٥٧

(٥) ثواب الاعمال ص ٢٠٥ بحار الانوار ج ٨ ص ٥٣ (٦) النساء : ٩٣

اتكالا على وعد الكريم !؟

لكن سبق أن الوعد بالشفاعة انما يستدعي الاعتزاز اذا كانت حتمية بالنسبة الى جميع المذنبين ، وبالنسبة الى جميع الاثام ، اما ومع الابهام في كلتا الناحيتين والتعليق على شروط ثقيلة فلا موضع للاعتزاز بهذا الوعد الا من غبي جهول .
اما الفائدة المتوخاة من وراء هذا الوعد فهما خلق الامل والرجاء في الحياة الذي هو المركز الاساسي للحبوية والنشاط . ان الانسان الاليس يتقاعس عن كل حركة او عمل ايجابي ويهيمن عليه الكسل والسأم في الحياة .

ان اليأس والقنوط عاملان أساسيان لبث روح الفشل في الحياة العامة ، وعلى العكس يكون الامل الوطيد . والرجاء الوثيق في بلوغ الاماني عاملين في تنشيط الحركة الاجتماعية العامة بشكل محسوس . ومن ثم كان اليأس من رحمة الله موبقة كبيرة وقد ينقلب صاحبها الى جرثومة خطيرة على المجتمع اذا ما أخذ اليأس من نفسه مأخذ القنوط .

قال تعالى: «ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون» (١) «قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً» (٢) .
وقال : « ولا تياسوا من روح الله ، انه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون » (٣) .

وبعد . . فان باب التوبة وباب المغفرة وباب الشفاعة نظائر ، وكل ذلك أبواب لرحمة الله الواسعة في وجه العباد ، وتفضل ولطف الهي يطرد اليأس عن الحياة ، وعطف ورأفة تخلق الامل والنشاط ، ان الله خلق الخلق ليغفر لهم ويرحمهم ، لا ليعذبهم أو يزعج بهم في دركات النار .

نعم لا اعتباط في نظام الخلق ، وانما هي أسباب ووسائل هو تعالى مهدها لعباده ، وأرشدهم اليها وحرصهم نحوها .

قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة» (١) ،
فهذه أبواب التوبة والاستغفار والشفاعة وسائل الى رحمة الله الواسعة ، هو فتحها
في وجههم رحمة بهم ورأفة «أن الله بالناس لرؤوف رحيم» (٢) .
قال الامام الصادق (ع) : «أرج الله رجاء لا يجرؤك على معاصيه ، وخف
الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته» (٣) .

وقال لقمان لابنه : «يا بني خف الله خوفاً لو وافيته ببر الثقلين خفت أن يعذبك
وأرج الله رجاء لو وافيته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر لك» (٤) .
وقال الامام الصادق عليه السلام تعليقا على هذا الكلام : «انه ليس من عبد
مؤمن الا في قلبه نوران : نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ،
ولو وزن هذا لم يزد على هذا» (٥) .

مراتب الشفاعة :

الشفاعة بالنسبة الى هذه الحياة هي الوسيلة الى الله في بلوغ حاجة ، أو
استجابة دعوة ، ليقوم المستشفع بقرن دعائه باسم وجيه عند الله ، ويتوسل اليه
بجاه ولي عزيز عليه من نبي مرسل أو ملك مقرب ، أو عبد اخلص العبودية لله ،
سواء أكان حياً أم ميتاً ، حيث اولياء الله احياء مع الابدية ، ليقوموا بمخالص دعائهم
بشأن المستشفعين .

وأما بالنسبة الى الحياة الآخرة فهناك شفاعة في عرصات القيامة تنال اولئك
الذين ارتكبوا خطايا الى جنب اعمالهم الصالحة هي وسيلتهم الى الله في شمول
العفو لهم ، والرضا بموقفهم العبودي ، لكن خوف الخطايا ألجأهم الى وسيلة اقوى

(١) المائدة : ٣٥ . (٢) البقرة : ١٤٣ .

(٣) الامالي - الصدوق - ص ١٠ بحار الانوار ج ٧٠ ص ٣٨٤ .

(٤) الامالي - الصدوق - ص ٣٩٧ (٥) الكافي ج ٢ ص ٦٧ ، بحار الانوار ج ٧٠ ص ٣٥٢

شافعة . وشفاعة اخرى تنال اولئك الذين دخلوا النار ، وأصابتهم سيئات ما اكتسبوا حتى وافتهم رحمة الله الواسعة ، وعنايته الكريمة ، فيؤذن في حقهم بالشفاعة ، فيخرجون من النار الى دار الجنان ، كما تؤثر الشفاعة ايضاً في ترفيع درجات الفائزين بدار الكرامة الخالدة .

وقد سبقت احاديث عن النبي (ص) والائمة (ع) تشير الى هذا التفصيل ، ولمزيد الاطلاع يراجع بحار الانوار باب الشفاعة من كتاب العدل والمعاد ، وغيره من اصول معتبرة .

والشفاعة في جميع هذه المواقف بمعنى واحد : دعاء وابتهاال الى الله ان يغفر ذنوب الخاطئين ، بعد الاذن من عنده تعالى . والتوسل : استدعاء هذا الدعاء والاستغفار ، كما استدعى اخوة يوسف من ابهم أن يستغفر لهم .



الشفعاء :

قال رسول الله (ص) : « لا شفيع انجح من التوبة » .

وقال : «ثلاثة يشفعون الى الله فيشفعون : الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء» .

وقال : «الشفعاء خمسة : القرآن والرحم والامانة ونببيكم وأهل بيت نببيكم» .

وقال : «من لم يؤمن بشفاعتي لا أناله الله شفاعتي» .

وقال : «ان الله اعطاني مسألة فأخرت مسألة المؤمنين من امتي يوم القيامة» .

وقال : «اني لا شفيع يوم القيامة فأشفع ، ويشفع علي فيشفع ، ويشفع أهل

بيتي فيشفعون» .

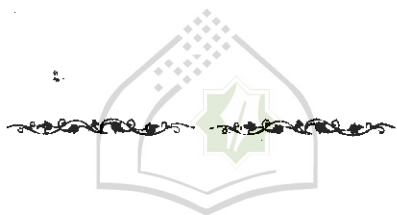
قال أمير المؤمنين عليه السلام : «ان لنا شفاعة ولاهل مودتنا شفاعة»

وقال الامام الباقر عليه السلام : «ان لرسول الله شفاعة في امته ، ولنا الشفاعة

ولشيعتنا الشفاعة . وان المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر» .

وقال الامام الصادق عليه السلام : «اذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد ، فاذا وقفا بين يدي الله عزوجل قيل للعابد : انطلق الى الجنة ، وقيل للعالم : قف تشفع للناس بحسن تأديبك» (١) .

هذا . . . ونبتهل الى الله تعالى ان يرزقنا شفاعة نبيه المختار وأهل بيته الاطهار صلوات الله عليهم أجمعين .



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم رسدي

ولا يشفعون الا لمن ارتضى

كتب الامام الصادق - ع - الى أصحابه :

« فاعلموا أنه ليس يفنى عنكم من الله من أحد ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا من دون ذلك ، فمن سره أن ينفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب الى الله أن يرضى عنه . »

روضة الكفنى ص ١١